﴿۞وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ٤١﴾ [هود: 41]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ابتداءُ إهلاكِ المجرمين يُقارنُه إنجاءُ المؤمنين

بعد بيانِ مجيءِ علامات الطّوفان، وأمارات الإهلاك، والأمر بتحميل سفينة النَّجاةِ بمن بهم تستمرُّ الحياةُ، حسُن بعد ذلك ذكرُ الاستجابةِ، وأنَّها بأمر الله تعالى لا بأمر أحدٍ من خلقه، فالمناسبةُ هي بيانُ ترتُّبِ الأمر بالرُّكوبِ والاستجابةِ لأمر الواحد القهّار على الأمر بحملِ ما يستحقُّ أن يُحمل، ومن يستحقُّ أن يكون على متنها.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَجۡرٖىهَا﴾: أصلُ (جري): يدلُّ على انسياحِ شَيءٍ، يُقالُ: جرى الماء يجري جريةً وجَرْيًا وجَرَيانًا[1]، وجرت السفينةُ جريًا، والجارية: السَّفينة، وهي صفةٌ غالبة[2]، وفي التَّنْزيل: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ١١﴾ [الحاقَّة: 11]؛ سُمّيت بذلك لجريها في البحر، ومنه قيل للأمَة: جاريةٌ، على التَّشبيه لجريها[3]، و﴿مَجۡرٖىهَا﴾، أي: مَسيرُها، وإجراؤها بمعنى المصدر الميمي ذي الأصل الرُّباعي من أجريتُه مَجرى وإجراء، أو بمعنى الوقت[4].

2) ﴿وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾: أصلُ (رسو): يدلُّ على ثبات الشَّيء بلزوم أسفله أو باطنه، ورَسَت السَّفينة: بلغ أسفلُها القَعْرَ، وانتهى إلى قَرار الماء،

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جرى).
(2) الجوهري، الصِّحاح، وابن سيده، المُحكم والمحيط الأعظم: (جرى).
(3) الفيّومي، المصباح المنير: 1/98.
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 204، والنَّيسابوري، إيجاز البيان: 1/412، وابن جرير، جامع البيان: 12/413، وابن الهائم التِّبيان، ص: 234.

فثبتَتْ[1]، ومعنى ﴿وَمُرْسَىٰهَآ﴾، أي: رُسوُّها، وموقفها ومحبسها[2] وانتهاءُ سَيرِها، بمعنى المصدر الميمي ذي الأصل الرُّباعي من أرسيته إرساء.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

رحـمـةُ الـلـه بـالـمـؤمـنـين هي في إنجائِهم من رؤيـةِ الأشـرارِ ونقلِهم إلى دارِ الأبرار

شرعتِ الآية في ذكر قولِ نوحٍ ﷺ آمرًا أهله والمؤمنين بالرُّكوبِ في السَّفينةِ، مستعينًا باسم اللّه تعالى في حالِ جريها وإرسائها، معلِّلًا ذلك الأمر بأنَّ اللّه تعالى هو الرَّبُّ الذي يرعى عبادَه المؤمنين، بغفرانِ ذنوبِهم، وبرحمتهم بأن يُنجّيهم من البقاءِ في دارٍ، الأشرارُ فيها باقون، إلى دارٍ نقيَّةٍ من أعمالِهم، عامرةٍ بالطّاعة والإيمانِ، فهي رحمةٌ تسبقها مغفرةٌ، ومآلها نجاةٌ في الدّارين.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواو في ﴿وَقَالَ﴾:

الـدَّلالـة على كـمال الامتثال لأمـر الـكـبـير المتعال

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾ عَطْفٌ على جملة ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا﴾، أي: قلنا له ذلك، وقال نوحٌ ﷺ لمن أُمر بحمله: اركبوا[3]، فالآية الكريمة معطوفة على مضمون الجملة السّابقة مع إضمارِ المعاني، والتقدير: قلنا له ذلك، فامتثلَ أمرنا، وقال لمن معه من المؤمنين: سلِّموا أمركم لمشيئة اللّه تعالى، وقولوا عند ركوب السَّفينة: باسم اللّه[4]، وهذا يدلُّ على كمال امتثال نوح ﷺ لأمر اللّه وسرعة استجابته لربِّه ومولاه.

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 204، وابن جرير، جامع البيان: 12/415، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: 2/394، والزَّبيدي، تاج العروس: 19/459، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (رسو).
(2) الكجراتي، مجمع بحار الأنوار: 2/327.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/73.
(4) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/207.

تعيينُ القائلِ في: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾:

النَّظم والسّياقُ يعـــزّزان أنَّ القائل هو نوحٌ عليه السلام

اختُلف في تعيين الفاعل في فعل ﴿وَقَالَ﴾، هل هو لنوحٍ عليه السلام أو لله تعالى؟

فقيل: إنَّ الضَّمير المستكن في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ﴾ عائدٌ على نوحٍ عليه السلام، وهو المتبادر من سياق الآية، فلحاق الآيةِ يدُلُّ على أنَّه لنوح لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، وقيل: إنَّه عائد على الله جلَّ في علاه، والتَّقدير: وقال الله لنوحٍ ومن معه[1]: ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾، ويدلُّ عليه سياق الآية: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا﴾، ويكون التفاتًا بالخروج من التَّكلم إلى الغَيبة[2]، والأظهر والأسعد بسياق الآية الكريمة، وهو ما تقتضيه بلاغةُ النَّظم وفصاحة الألفاظ؛ القول الأول.

الغرض من الاستعارة في (الرُّكوب):

السَّفينة مركبُ الانتصار ومرتعُ الأبـــرار ومـحـلُّ الفرار

الرُّكوبُ في الأصل العُلوُّ على الشَّيء وغلبته فيه، فيتعدَّى بنفسه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا﴾ [النَّحل: 8]، وقد يُطلق على الصَّيرورة والدُّخول، فيكون معنى ﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾ صيروا فيها، وجعل ذلك ركوبًا؛ لأنَّها في الماء كالمركوب في الأرض، ففيه استعارة تصريحيَّة تبعيَّة من حيث تشبيه الصَّيرورة فيها بالرُّكوب[3]، ويلزم له كون الصَّيرورة فيها كالرُّكوب في الأنعام[4]، ولأجل هذا تعدّى الفعل بحرفِ ﴿فِي﴾ الدّال على المحلّيَّة، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ [العنكبوت: 65]؛ فإنَّهم في داخل البطن الأعلى، أو في الوسط، وليسوا على أعلاها، كما يكون الرّاكب على أعلى الدّابَّة، فَشُبِّهوا براكب الدّابَّة[5]، فالجامع بين الرُّكوبَيْن السَّيرُ،

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/36، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/155.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/356.
(3) الشِّهاب الخفاجي، حاشية الشِّهاب على تفسير البيضاوي: 5/165، والآلوسي، روح المعاني: 6/254.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/80.
(5) أطفيش، تيسير التَّفسير: 6/397.

غير أنَّ ركوبَ الدّابَّة يتعدَّى بنفسه، وركوب الفُلك يتعدَّى بحرف الجرِّ ﴿فِي﴾ للفرق بين الأصلِ وهو ركوب الدّابة، والفرعِ وهو الرُّكوب في السَّفينَة، ولا يتعارض هذا مع قوله تعالى: ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ٢٢﴾ [المؤمنون: 22]؛ لأنَّ فيه التفاتًا إلى المَركوب لا الرّاكب؛ لأنَّ الرّاكبَ محمول على ظهر السَّفينَة.

سِرُّ الخطاب بضمير العُقلاء في: ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾:

إركابُ الحيواناتِ إركابُ تسييرٍ، وإركابُ البشرِ إركابُ تخييرٍ

خاطبتِ الآيةُ الكريمة المؤمنين من النّاس، أي: ذوي العقول، دون التَّعرُّضِ لغيرِهم من الكائنات المحمولة، وذلك لظهوره وعدم الاعتناء بشأنها كالاعتناءِ بذوي العقول؛ إذ المقصود من الأمر المذكور هو التَّسمية حين الرُّكوب، وهو لا يتصوَّر إلّا في العقلاء[1]، ويحتمل الكلام أن يكون ﷺ قال هذه المقالة بعد إدخال ما أُمر بحمله من الأزواج، كأنَّه قيل: فحَملَ الأزواج، وأدخلَها في الفلك، وقال للمؤمنين: اركبوا فيها[2].

والأوجَهُ من ذلك أنَّ لفظ ﴿ٱحۡمِلۡ﴾ يدخل فيه الحيوانات والبشر جميعًا، لكن على تفصيل: أمّا حمْلُ الحيوانات؛ فهذه وظيفة البشر بسوقها إلى السَّفينة، وأمّا حمل البشر؛ فبأمرِهم ﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾، ولذلك فإنَّ إركاب الحيوانات؛ هو إركابُ تسيير، وإركاب البشر؛ فهو إركاب تخيير.

سِرُّ تأنيث الضَّمير ﴿فِيهَا﴾:

الفُلك باعتبار الاسم العلم، والسفينة باعتبار وظيفتها في الحمل

ذكرتِ الآيات السابقة أنَّ الله تعالى أمر نوحًا ﷺ بصناعة الفلك: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾، وقال في الإخبارِ عن نوحٍ ﷺ بأنَّه: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾، والفُلك لفظٌ مذكَّرٌ لا مؤنَّث، ولم يُذكَرْ لفظُ السَّفينة، فيُسأل عن نكتةِ تأنيث الضَّمير العائد على الفُلكِ في قوله تعالى:

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/80.
(2) القنوجي، فتح البيان: 3/316.

﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾؛ إذ لم يقل: (اركبوا فيه)؟ ونكتتُهُ: أنَّ النَّظم فسَّرَ الفُلك بالسَّفينة، وأنَّه فُلكٌ باعتبارِ عنوانها، وسفينةٌ باعتبار وظيفة الحَمْل، ولذلك ذكَّر الفُلك باعتبارِ الاسم، لكن لمّا جاء على اعتبار وظيفة الحَمْل أتى بضميرِ التأنيث، أي: في السَّفينة، كقوله تعالى: ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣﴾ [القمر: 13].

سِرُّ تعدية الفعل ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾ بـ(في):

رعاية المحلّيَّة والمكانيَّة في السَّفينة والإشارة إلى هيئة صنعها

عُدّي فعلُ الأمر بالرُّكوب في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾ بحرف (في)؛ لاعتبار الصَّيرورة، وإلّا فالفعل يتعدَّى بنفسِه؛ لأنَّه ضُمِّنَ معنى صيروا، فهم أُمروا أن يكونوا في جوفِها لا على ظهرها[1]، لرعاية جانب المحلّيَّة والمكانيَّة في الفُلْكِ[2]، ولمّا كانت الظَّرفيَّة أغلب على السفينة؛ قال: ﴿فِيهَا﴾[3]، وهذا يُعطينا إلماحةً، وهي: أنَّ نوحًا عليه السلام صنع السَّفينة بوحيٍ من الله تعالى على نظامٍ متقنٍ، فهُمْ لم يركبوا على سطحها، بل بُنيت بما يتيح لهم السَّكن فيها، خُصوصًا وأنَّ تلك السَّفينة تحمل وُحوشًا وهوامّا وحيوانات بجانب البشر؛ لذلك كان لا بُدَّ من بنائها على هيئة طبقاتٍ وأدوار[4].

الباء في ﴿بِسۡمِ﴾ بين الحقيقة والمَجاز:

الباء في قوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ تحتمل معنيين أساسيَّين:

الباء إمّا للملابسة على الحقيقة، أو الاستعانة على المجاز

الأول: أن تكون للملابسة، ويُعبِّر أهل العلم عنه بالإلصاق والمَصاحبة أيضًا، فهذه مترادفات في الدَّلالة على هذا المعنى[5]، وهي في موضع الحال من ضمير ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾، أي: اركبوا ملابسين لاسم الله، وهي ملابسة القول لقائلِه، أي: قائلين: باسم الله، وقت

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/36.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/254.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/287.
(4) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 11/6473.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/147.

إجرائها وإرسائها، أو مكانهما على أنَّ المجرى والمرسى للوقت، أو المكان، أو المصدر[1]، فبتسخيره وقُدرته مجراها حين تجري أو حين يجريها، ومُرساها حين يُرسيها، لا بحول البشر ولا قوَّتهم[2].

الآخر: أن تكون الباءُ للاستعانة، واسْتِعْمالُها في ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ لمعنى الاستعانة يحتمل الآتي:

أولًا: تحتمل أن تَكونَ من باب الاستعارة المكنيَّة التَّبعيَّة[3]؛ لأنَّ استعارَةَ الحُروف تبعيَّة[4]، وهي تجري في متَعَلَّقات معانيها أوَّلًا، ثُمَّ تَسْري فيها ثانيًا[5]، حيث شُبِّهَ الارتباطُ على وجه الاستعانة بالارتباط على وجه الإلصاق، بِجامع مُطْلَقِ الارتِباط في كُلٍّ، فسَرى التشبيهُ للجزئيّات، واستعيرَتِ الباء الموضوعة للإلصاق الجُزْئيِّ للاستعانة الجُزئيَّة على طريق الاستعارة التَّبعيَّة[6].

والمعنى: وقال: اركبوا فيها مستعينين باسم الله في جريانها وإرسائها، فهو الذي يتولَّى ذلك بحوله وقوَّته، وحفظه وعنايته، وفي هذا بشارةٌ لهم بحفظه تعالى لها ولهم[7].

ثانيًا: تحتمل أن تكون من باب المَجازِ المُرسَلِ، علاقتُه: الإطلاق والتَّقييدُ؛ ووجْهُ ذلك أنَّ الباء لارْتِباطٍ مُقَيَّدٍ بالإلصاقِ، فأُطلِقَ عن القَيْدِ، واسْتُعْمِلَت في الارتِباط على وجْهِ الاسْتعانة[8].

بلاغةُ الاحتراس في: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾:

سبق آنفًا بيانُ أنَّ الباء في قولِه تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾؛ للاستعانةِ،

ذكرُ الاسم لبيانِ أنَّ المقصودَ هو التَّيمُّن لا اليمين

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/135، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/73.
(2) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 12/76.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/10.
(4) السُّبْكي، عروس الأفراح: 2/172.
(5) السَّكّاكي، مفتاح العلوم، ص: 380.
(6) الدّسوقي، حاشية على مختصر المعاني: 1/3.
(7) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 12/76.
(8) الدّسوقي، حاشية على مختصر المعاني: 1/3 - 4.

ففي الجملةِ إطنابٌ بزيادَةِ (اسم)، ومقتضى الظّاهرِ أن تكون: (باللّه)؛ إذِ الاستعانَةُ تكون باللّه تعالى لا باسْمِهِ، وفائدةُ ذكر (اسْم): دَفعُ اللَّبْسِ؛ إذْ لو قيل: (باللّه)؛ لاحتَمَلَ الكلامُ أنْ يكونَ قسمًا، فجيءَ بـ لفظِ (اسم) للتَّمْييزِ بين التَّيمُّنِ واليَمين[1]، ففيه احتِراسٌ؛ بقصد دفع إيهام القسم؛ ويَحْتَملُ أنْ لا إطنابَ فيها؛ إذِ الاستعانَةُ تكون تارةً باللّه تعالى، وتارةً باسمه، ولكلٍّ وجهه[2].

دلالةُ الإضافة في: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾:

استحضار معاني الألوهيَّة في المواقف العظيمة نجاةٌ وعبوديَّة

أُضيف لفظ ﴿بِسْمِ﴾ إلى الاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ المقام مقامٌ عظيمٌ، والموقف موقفٌ جسيمٌ، فالطّوفان الذي سيغمر الأرض طوفانٌ هائلٌ مهولٌ، لا يتخيَّله الذِّهن، ولا يحيط به التَّصوُّر، فهُنا يستحضر المؤمن عظمة الآمر لهذا الطّوفان، والمسيِّر له، والحافظِ لتلك السَّفينةِ والثُّلةِ المؤمنة في لجَّة ذلك الموج العظيم، واستحضارُ معاني الألوهيَّة الدّالة على العظمة ضرورةٌ؛ لاحتياج المؤمن إلى تقرير كمال ألوهيَّته ﷻ في نفسه في كلِّ موقفٍ يحتاج فيه إلى مساندته وحوله وقوَّته.

سرُّ تقديم ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾:

اسمُ الله قبل كلِّ شيءٍ؛ لأنَّه أرسخُ من كلِّ شيءٍ

إذا كان تقدير الآية: (إجراؤها وإرساؤها باسم اللّه) الذي هو في الأصل جملة مكوَّنة من مبتدأ وخبر[3]، ففيها تقديم المعمولِ على العامل، ونكتةُ ذلك أنَّه أوقعُ؛ لأنَّه أهمُّ وأدلُّ على الاختصاص، وأدخل في التَّعظيم، وأوفق للوجود، فإنَّ اسمه ﷻ مُقدَّم، كيف لا؟

(1) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 1/443.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 1/9 - 10.

(3) السُّيوطي، نواهد الأبكار: 1/89، ويكون إعراب الآية على هذا التَّقدير: ﴿بِسْمِ﴾ جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقان بمحذوف هو خبر مقدَّم، و﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور، و﴿مَجْرِىٰهَا﴾: (مجرى): مبتدأ مؤخَّر مرفوع وعلامة الرفع الضمَّة المقدَّرة على الألف. ينظر: محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 12/269.

والفعل لا يتمُّ، ولا يعتدُّ به شرعًا ما لم يصدَّر باسمه تعالى[1]، فكان هذا التَّقديم أحسنَ وقعًا، وأزيدَ وقوعًا في قلب السّامع من تقديم العامل، فَقُدِّمَ لكون اسمه تَعالى أهمَّ، فإجراؤها وإرساؤها باسم اللّه فقط، لا بهبوب الرِّياح في الأول، وإلقاء المرساة في الثّاني[2].

توجيه القراءات في: ﴿مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾:

حشدُ المعاني بالقراءات تنويعٌ بليغٌ وتفنُّنٌ بديع

قرأ الجمهور قولَه تعالى: ﴿مُجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ بضم الميمين[3]، وهُما مصدران، فأجرى السَّفينة إذا جعلها جاريةً، أي: سيَّرها بسرعة، وأرساها إذا جعلها راسيةً، أي: واقفة على الشّاطئ[4]، والمعنى: إجراؤها وإرساؤها بأمر اللّه[5].

وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وخَلَفٌ بفتح الميم في ﴿مَجْرٖىٰهَا﴾[6] على أنَّه مَفْعَلٌ للمصدر أو الزَّمان أو المكان[7]، منْ جَرَتِ السَّفينَةُ جَريًا ومجرًى، وقالوا: إنَّ معنى ذَلِك: بِسم اللّه حينَ تجري، وحجَّتهم قَولُهُ بَعْدها: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٖ كَٱلْجِبَالِ﴾ فالإسنادُ إلى السَّفينَةِ في اللَّفْظِ والمعْنَى[8]، فالسفينة جاريةٌ راسية حقيقةً، واللّه هو الذي أجراها، وأرساها، وهذا من باب تكثير المعاني بين جريانها وإجرائها، ومكان جريها، ومكان إجرائها، وزمان جريها وزمان إجرائها.

وأمّا ﴿وَمُرْسَىٰهَآ﴾؛ فبضمِّ الميم للجميع؛ لأنَّه لا يُقال: (مَرساها) بفتح الميم؛ ووجْهُ العدول عن الفتح في مُرساها في كلام العرب –

(1) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 1/25.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 1/88.
(3) ابن الجزري، النَّشر: 2/288.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/73 - 74.
(5) السَّمرقندي، تفسير السَّمرقندي: 2/151.
(6) ابن الجزري، النَّشر: 2/288.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 12/73 - 74.
(8) ابن زنجلة، حُجَّة القراءات، ص: 340.

مع أنَّه في القياس مماثل (مجراها) - دَفْعُ اللَّبس لئلّا يَلْتَبِسَ باسم المَرسى الذي هو المكان المُعَدُّ لرُسوِّ السُّفن[1].

موقع جملة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾:

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ إمّا أن يكون مقتضبًا ممّا قبله، أو حالًا منها:

التَّنبيهُ على استصحاب ذكر الله عند الرُّكوب، واستحضاره عند الانطلاق والحلول

الأول: أن تكون الجملة مُقتضبة[2] منقطعة عمّا قبلها؛ لاختلافهما خبرًا وطَلَبًا، على أنَّ نوحًا عليه السلام أمرهم بالرُّكوب في السَّفينة، ثم أخبرهم بأنَّ إجراءها وإرساءها بسم الله تعالى[3]، فلا مُناسبة بين الأمر بالرُّكوب، وبين الإخبار بأنَّ مَجرى السَّفينة ومُرْساها سيكون بذكر اسم الله؛ لاختلاف الإنشائية والخبريَّة[4]، فيكونان كلامَين له عليه السلام[5]، وهذا يدلُّ على أنَّه لمّا ركب السَّفينة؛ أخبر القوم بأنَّ السَّفينة ليست سببًا لحصول النَّجاة، بل الواجب ربطُ الهِمَّة وتعليقُ القلب بفضل الله تعالى، وأخبرهم أنَّه تعالى هو المُجري والمُرسي للسَّفينة، فإيّاكم أن تعوِّلوا على السَّفينة، بل يجب أن يكون تعويلكم على فضل الله، فإنَّه هو المُجري والمرسي لها، وفي ذلك إزالةٌ لما عسى أن يختلج في قلوبهم من خوف الغرق ونحوه[6].

الآخر: أن تكون الجملة في موضع الحال من ضمير ﴿ٱلْفُلْكَ﴾، أي: اركبوا فيها مُجراةً ومُرساةً باسم الله؛ فيكون الرُّكوب مقرونًا بهذا الذِّكر، وهي حالٌ مُقدَّرة؛ إذ لا إجراء ولا إرساء وقت الرُّكوب[7]،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 12/73 - 74.

(2) الاقتضاب: الانتقال مما افتتح به الكلام إلى المقصود من غير مناسبة، ينظر: التنوخي، الأقصى القريب في علم البيان، ص: 84، والصَّعيدي، بغية الإيضاح: 4/712، فهو: الإتيان بالشَّيء استئنافًا بغتة، أُطلق على الإتيان بالكلام بعد الآخر بلا ربط ومناسبة. يُنظر: المغربي، مواهب الفتاح: 2/710.

(3) القاسمي، محاسن التَّنزيل: 6/94.

(4) محيي الدّين زاده، حاشية زاده على البيضاوي: 4/644.

(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 4/209.

(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/348، والآلوسي، روح المعاني: 6/254.

(7) الآلوسي، روح المعاني: 6/254.

وهذا المعنى يُشير إلى أنَّ الإنسان لا ينبغي أن يشرع في أمرٍ من الأمور إلّا ويكون في وقت الشُّروع فيه ذاكرًا لاسم الله تعالى بالأذكار المقدَّسة، حتَّى يكون ببركة ذلك الذِّكر سببًا لتمام ذلك المقصود[1].

بلاغةُ شبه كمال الاتصال:

الاستئناف البيانيُّ كاشفٌ عن رحمةِ الله مع تعليل الأمر

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ جملةٌ مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ كأنَّه قيل: هل نجاتهم من هذا الهول العظيم بركوبهم في الفلك الجسيم؟ هل هم مُستحقّون بذلك أو بمحضِ لُطفهِ تعالى وعفوهِ ورحمته؟ فأجيب بذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

أي: لولا مغفرته ورحمته إيّاكم لما أنجاكم من هذه الطّامة إيمانكم، وفيه دلالة على أنَّ نجاتهم لم تكن عن استحقاق؛ بسبب أنَّهم كانوا مؤمنين، بل بمحض رحمة الله تعالى وغفرانه، ومنعُ صلاحية كونها علَّةً لقوله تعالى: ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾؛ لعدم المناسبة؛ فَيُقدَّر ما يصحُّ به الكلام بأن يُقال: امتثلوا هذا الحكم لينجيكم من الهلاك بمغفرته ورحمته، أو يقال: ﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾ ذاكرين الله تعالى، ولا تخافوا الغرق لما عسى فرط منكم من التَّقصير؛ لأنَّ الله تعالى شأنه غفورٌ للخطايا والذُّنوب رحيمٌ بعباده[3]. وفيها معنى التَّعليل للأمر بالرُّكوب المصاحب لذكر الله تعالى، أي: إنَّ ربي لعظيم المغفرة ولعظيم الرَّحمة لمن كان مُطيعًا له مُخلصًا في عبادته، وفي التَّعليل بالمغفرة والرَّحمة إشارةٌ إلى أنَّ الله وعد بنجاتهم، وذلك من غفرانه ورحمته[4].

دلالة التَّوكيد بأكثر من مؤكِّدين:

من غفَرَ؛ رَحِمَ، ومن رَحِمَ؛ نجَّى عبادَه من هولِ الأقدار

علَّل النَّظم الكريم نجاتهم بالإجراء والإرساء اعترافًا بأنَّه لا نجاة إلّا بعفوه، وأكَّد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/348.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/84.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/254.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/74، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/207.

بحرف ﴿إِنَّ﴾ واسمية الجملة بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾[1] تأكيدًا للكلام وتقريرًا له في نفوس السّامعين، وزاد النَّظم الكريم في التَّأكيد تطمينًا لقلوب مَن مع نوحٍ ﷺ، مُعرِّفًا لهم بأنَّ أحدًا لن يقدر الله حَقَّ قدره، وأنَّ العبد لا يسَعهُ إلّا الغُفران، فقال: ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2]؛ تحقيقًا للمؤمنين بأنَّ الله رحمهم بالإنجاء من الغرق[3]؛ لكون المقام مقامَ الخوف لهولِ أمر الطّوفان.

سرُّ وضع المظهر موضع المضمر:

التَّعرُّض لعنوان الرُّبوبيةِ لتربيَةِ مبادي المغفرةِ والرَّحمة في قلوب السّامعين

آثر النَّظم الكريم إظهار لفظ الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فلم يقل: (إنَّه لغفورٌ رحيم)، وذلك للتَّعرُّض لعنوان الرُّبوبيةِ لتربيَةِ مبادي المغفرةِ والرَّحمة في قلوب السّامعين، اعترافًا للمولى بما أنعمَ من أفضال ربوبيَّته، فكانت النَّجاة والتَّمكين للمؤمنين، بعد هلاك الكافرين؛ وأُجري على اسم الجلالة صفة الرُّبوبيَّة استدلالًا على صِحَّةِ التَّوكُّل عليه في دفع الضُّر عنهم وجلب النَّفع والخير لهم؛ لأنَّه مالكهم ومُربّيهم بإنعامه يدفع عنهم الضُّرَّ، ويجلب لهم الخير.

دلالةُ ذكر المغفرة والرَّحمة:

بذكرِ الأضداد تبينُ المحامد وتشخص النِّعم

ذِكرُ المغفرةِ والرحمة بعد ذِكرِ الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين هو في الجملة شأن القرآن في بيان الأضداد و المتقابلات، وهو مسلكٌ قرآنيٌّ مطَّرد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف: 167]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ [الرَّعد: 6]، ونحو ذلك من الآيات التي تقرن بين الرَّحمة والانتقام، وذِكرُ المغفرة

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/287.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/287.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/74.

والرَّحمة في وقت الإهلاك وإظهار القهر؛ لبيان فضل الله على عباده الذين نجّاهم، فهم في جميع الأحوال بحاجةٍ إلى إعانة الله وفضله وإحسانه، والإنسانُ لا ينفكُّ عادةً عن أنواع الزَّلات والخطايا، فإنَّ نجاتهم لا ببركة عملهم - كما قد يَظنُّون - وإنَّما بمحض فضلٍ من الخالق المنّان الرَّحيم الرَّحمن[1]، كما أنَّ وصف الرَّحمة أنسبُ؛ لأنَّه نَسَبَ نوحًا إلى عمل السَّفينة لينجو فيها هو وقومه[2]، فآية المغفرة والرَّحمة - في هذا المقام الخطير وقت الإهلاك والغرق - في غاية الإشعار بفضل الله ورحمته على عباده المؤمنين الذين نجّاهم[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المغفرةُ والرَّحمة:

الفرقُ بينَهما من أوجهٍ:

أوَّلًا: أنَّ أصلَ الغَفْرِ في اللُّغة: السَّتْرُ[4]، وأصلَ الرَّحْمَةِ: الرِّقَّةُ والعَطْفُ[5].

في المغفرة سَتْرٌ للذَّنب السّابق وفي الرَّحمة تحصيلٌ للمطلوب

ثانيًا: أنَّ أحدهما سببٌ في الآخَرِ، ومال ابنُ عرفة إلى أنَّ الرَّحمة سببٌ في المغفرة؛ لأنَّ الرِّقَّةَ والعطفَ توجِبُ عادةً سَتْرَ الزَّلَلِ[6]، ولله المثَلُ الأعلى، أمّا في فعل المخلوق؛ فإنَّ الاستغفار وطلب المغفرة هو الجالب للرَّحمة والسَّبب فيها، كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [النَّمل: 46].

ثالثًا: أنَّ المغفرة والرَّحمةَ إذا جُمعا في محلٍّ واحدٍ؛ فالمغفرةُ لسَتْرِ ما مضى من الذُّنوبِ، والرَّحمةُ للسَّلامةِ منْها فيما يُستقبَلُ[7].

(1) وهبة الزُّحيلي، التَّفسير المنير: 12/69.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/356.
(3) وهبة الزُّحيلي، التَّفسير الوسيط: 2/1042.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رحم).
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/435 - 2/258.
(7) ابن عثيمين، شرح ثلاثة الأصول وأدلَّتها، ص: 19.

رابعًا: أنَّ المغفرةَ فيها زَوالُ المكروه من آثار الذُّنوب، والرَّحمةَ فيها تحصيلُ المطلوب[1].

المغفرة والعفو:

الفرقُ بينَهما من أوْجُهٍ:

الـغـفـر سـترٌ والعفو محوٌ

أوَّلًا: أنَّ أصلَ الغَفْرِ في لُغة العربِ: السَّتْرُ[2]، وأصلَ العفو: المحْوُ وتركُ الشَّيء[3].

ثانيًا: أنَّ الغالبَ استعمالُ العفوِ في ترك الواجبات، واستعمالُ المغفرة في فعل المحرَّمات[4].

ثالثًا: أنَّ أحدَهُما أبلغُ منَ الآخر، وقد وقع خلافٌ في تعيين الأبلَغِ منهما على قولَيْن:

أحدُهما: أنَّ العفو أبلغُ منَ المغفرة؛ لأنَّ المغفرةَ تُنْبِئُ عَنِ السَّتْرِ، بخلاف العفو فإنَّه مشعِرٌ بالمحو، والمحوُ أبلغُ من السَّتْرِ[5].

والآخرُ: أنَّ المغفرةَ أبلغُ منَ العفوِ؛ لأنَّ المغفرةَ متضمِّنَةٌ وقايةَ المغفورِ له شرَّ ذنبِهِ، وإقبالَ الغافرِ عليهِ ورضاهُ عنه، بخلاف العفوِ؛ فإنَّهُ متضمِّنٌ لإسقاط صاحب الحقِّ حقَّهُ ومسامحتِهِ، فقد يعفو ولا يُقْبِلُ على من عفا عنه، ولا يرضى عنه، وبهذا يكون العفوُ تركًا محضًا، والمغفرةُ إحسانًا وفضلًا وجودًا[6].

والأوَّلُ أشهَرُ، والاشتقاقُ اللُّغَويُّ يدلُّ عليه.

(1) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 3/66.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عفو)، وابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (عفا).
(4) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيّة: 1/341.
(5) الصَّفّوري، نزهة المجالس ومنتخب النَّفائس: 1/88.
(6) ابن تيميّة، مجموع الفتاوى: 14/140.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 21 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك :978-9948-768-18-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 21 : المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي :978-9948-768-18-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725944 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»